القائمون بأمر الدعوة بين الإبداع والابتداع

بقلم

الدكتور

فوزي عبد العظيم سلامة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وتمسك بسنته إلى يوم الدين .

أما بعد . . .

فمما لا شك فيه أن الدعوة إلى الله — تعالى — فريضة شرعية ، وضرورة اجتماعية وذلك للأسباب الآتية :

أولا : الناس فى حاجة إلى من يبين لهم ما أنزل إليهم من ربهم،ليقيم الحجة عليهم ، وهذه من مهمات رسل الله — تعالى — إذ لا عقوبة دون نذارة ، وصدق الله إذ يقول : « لتنـــذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون »[1] ، ويقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[2] .

ثانياً : دنيانا التى نعيش فيها . فيها ما فيها من نوازع الشر والمطامع والأهواء ، وأصحاب هذه الأهواء والمطامع يودون أن تشيع هذه الأهواء والضلالات فى المجتمع كله قال تعالى : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء »[3] .

---

(1) سورة يس الآية : ٦

(2) سورة الاسراء من الآية : ١٥

(3) سورة النساء من الآية : ٨٩

ولذلك ترى هؤلاء يتعاونون «والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون»[١] ، فكان لابد أن يتعامل أهل الإيمان على الخير والفضيلة لتسود حتى لا تكون فتنة. ويكون الدين لله، «والمؤمنون والمؤمنات ، بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[٢]

ثالثاً : الدعوة إلى الإسلام تعني عرض الإسلام كله، وشرح كتاب جعله الله تبياناً لكل شيء ، قال تعالى : «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»[٣] وتقريب نبوة جعلها الله ريادة إلى ميادين الكمال الإنساني كله ، قال تعالى : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا»[٤] . لذلك لزم الداعي أن يكون مستكمل العدة من جميع العلوم الشرعية والإنسانية ، والأدبية ، حتى يقدر على تحمل هذا العبء ، واجتياز الحروب الشاقة به .

رابعاً : إن الفتوى الجاهلة : والبدعة المحدثة . والحديث الموضوع ، والخرافة المقدسة ، كل ذلك لون من ألوان تزوير الوحي ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والشهادة على الله بما لم يقل .

لهذه الأسباب وغيرها جاءت هذه الدراسة المتواضعة ، التي أنشد من خلالها ، بيان الطريق أمام القائمين بأمر الدعوة إلى الله — تعالى — كي

---

(١) سورة التوبة الآية : ٦٧
(٢) سورة التوبة من الآية : ٧١
(٣) سورة النحل من الآية : ٨٩
(٤) سورة الأحزاب : الآية : ٢١

يدعوا فى دعوتهم ، فيلبسوها ثوب الحكمة فى العرض ، وذلك بإظهار الحقائق الثابتة السليمة ، وأخذ العبر والدروس المستفادة من أقوال الفقهاء — فلكل مقام مقال ، ولكل وقت حال — تاركين الروايات الشاذة ، وأقوال المغرضين ، فالوقت قد آن فى إقصاء المفلسين فى حقل الدعوة ، الذين لا فقه لهم ، ونصبوا أنفسهم دعاة ..... ولكن بلا زاد . فضلوا الطريق ، ولو قاموا بعرض فطرة الله فى الأنفس ، وكشفوا عن طبيعة الوحى الأعلى فى مثل قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »(١) . لكان أقوى وأجدى فى التوصل إلى الحق ، وأراحوا أنفسهم .

وانطلاقا من هذا لابد وأن نبدأ دراستنا هذه من نقطة ثابتة لا يختلف فيها اثنان كى نكشف عن هذا المراد من هذه الدعوة الخاتمة ، أمام القائمين بأمرها ، ليكونوا على بينة « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »(٢)

فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) سورة الحديد من الآية : ٢٥

(٢) سورة محمد الآية : ١٤

الرجوع إلى الفطرة ضرورة لمن قام بأمر الدعوة

بيان ذلك :

أن الإنسان بفطرته التى ولد بها . يدرك أن العدل حسن ، والظلم قبيح ، كما يدرك أن العلم مفخرة . والجهل عار .... ومع تجاوب الإنسان مع فطرته يمكنه إيجاد مجتمع قائم على قواعد وسمات أدنى إلى روح الدين ، أو أقرب إلى تعاليم الإسلام ، ذلك أن أساس الفطرة عقل سليم ، وقلب طاهر نقى .

وسلامة العقل توجب احترام الحقائق ، وإدراك الواقع دون نقص أو زيادة ، كما توجب رفض الأوهام ، والوقوف بالظنون عند حدودها فلا تتحول النظرية إلى يقين ، ولا الأوهام إلى حقائق ... ذلك بالنسبة إلى العقل .

أما بالنسبة إلى القلب وطهارته ، فإن الفطرة السليمة تعنى إنساناً لايعبد نفسه ، ولا يتبع هواه ، ولا يتحامل على الآخرين .. .. فلا معنى الحقد ، والافتراء ، وسوء الظن بالآخرين ، ومحاولة الصعود على أنقاض الأبرياء والخصوم .

فهى — أى الفطرة — إذا كالحق تماماً لايتغير ولا يتعدد ، لأنه خط مستقيم ، والخط المستقيم كما هو معلوم أقصر طريق بين نقطتين ، ومن ثم لايكون إلا واحداً ، أما مع فقدان الاستقامة واختلاف البداية والنهاية ، فإن الخطوط المائلة لاتحصر عداً ..

وبهذا فلا رشد ولا فلاح إلا فى التزام الصراط المستقيم ، من أجل ذلك قال الله — عز وجل — لنبيه — ﷺ — ولكل من تبعه

من المؤمنين الذين آثروا الفطرة السليمة : «منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون»(١) .

وليس معنى الفطرة أن الناس حين يولدون يخرجون من قالب واحد تصب فيه النطفة فتخرج الإنسان الذى يعرف أصول دينه من عقيدة أساسها التوحيد المطلق ، وشريعة الهية مفصلة ، ومنهاج يسير عليه فى الحياة ولو كان الأمر كذلك ما كان هناك تكليف ، وما كانت هناك نبوة ، ولكن الأمر عكس ذلك ، فالإنسان حين يولد يكون مستعداً لهذه الفطرة مندفعاً فى مجراها تدافع السيل إلى مستقره ... لكن العوائق قد تحول بين الإنسان وبين فطرته ، هذه العوائق أساسها ومصدرها البيئات المنحرفة .

دعاة يشوهون ولا يجملون ، يهدمون ولا يبنون :

لقد أشار النبى — ﷺ — إلى أخطار البيئات المنحرفة التى تحول بين الإنسان وفطرته فتلوى زمامها عن التوحيد الخالص ، وتسلك بها سبيل التجسيد والتثليث .. وهذا معلوم ومشاهد ، حيث نرى التدين الفاسد مولع بالتحريم ، راغب فى تضييق المباحات ، وهذا دأبه وديدنه ، كأنه يريد من خلال نغمته هذه إيجاد رجال يوافقون عقله وهواه ، وهذا ضرب من المحال مخالف للفطرة التى خلق الله الناس عليها ، فعن عياض المجاشعى أن رسول الله — ﷺ — قال ذات يوم فى خطبته ، ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا ، كل مال نحلته عبداً حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ، وإن الله

---

(١) سورة الروم الآيتان : ٣١ ، ٣٢

نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال استخرجهم كما استخرجوك. واغزهم نغزك، وانفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى. ومسلم عفيف متعفف ذو عيال، وقال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل أو الكذب، والشنظير الفحاش، ولم يذكر أبو غسان في حديثه وأنفق فسننفق عليك[1].

وقفة مع هذا النص النبوي:

أولا: ظاهر الحديث يدل على أن النبي ﷺ قد قاله بعد الهجرة حينما تصدرت قريش مواكب المعاندين، وأرصدت كل ما تملك للقضاء على الإسلام ونبيه. فأمر النبي ﷺ من ربه – جل وعلا – أن يحدد نفسه لمواجهة هذا الضلال وأهله.

ثانيا: الحديث فيه دعوة صريحة لرفض الجهل، وكذلك النظرة الضيقة التي تعزل الدين عن الواقع ..... إنه يصنع حضارة في كل أوجه الحياة، حضارة تتجدد وتتطور كلما تتابعت الأجيال، وتطورت البيئات لا مجرد رسوم وتعابير هامدة تكرر نفسها دون جديد ... !!

(١) صحيح مسلم جـ ٨ ص ١٥٩ ك/ الجنة وصفة نعيمها، ب/ الصفات التي يعرف في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

يدل على ذلك قوله — ﷺ — « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبداً حلال ». هذا القول يتأكد من خلال قول الله — تعالى — « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً »[1] وقوله: « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[2]، لقد سد الباب إذاً أمام المولعين بالتحريم وضيق الخناق عليهم، وبهذا فليس لأي أحد من البشر أن يحرم أو أن يشدد في التحريم، فالقاعدة الأصولية تقول :

الأصل في الأشياء الإباحة .. وتكملتها ... ولا تحريم إلا بنص .

ومؤيداتها :

التحريم الديني لا يكون إلا بنص قطعي، والقرآن قد فصل لنا ماحرم علينا، ولا مزيد من التحريم ....

والتحريم الديني لا يعتبر من التشريعات العامة إلا إذا كان النص الوارد في شأنه قطعياً وارداً مورد التكليف/ أي أن يكون قطعي الثبوت وقطعي الدلالة ...

فالإباحة قاعدة ... والتحريم استثناء .

والاستثناء لا يتوسع فيه ولا يقاس عليه[3] .

ثالثاً : إن القرآن الكريم ليضع التوسع في التحريم، جنباً إلى جنبه مع الشرك بالله — تعالى — يقول سبحانه حاكيا حال المشركين « سيقول

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٩

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٨

(٣) انظر : الأصل هو الإباحة — إبراهيم بشير الغويل ص ١٥.

الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء »(١)
«وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »(٢).

والحديث الذي بين أيدينا يوضح هذا المفهوم ويجليه ، فقد جاء بعضه نبوياً ، وبعضه قدسيا ، وفيه يقول — ﷺ — عن رب العزة سبحانه « وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ... وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ... » . وفى هذا إشارة إلى الضلال الذى أطبق أهل الأرض جميعهم قبل بعثة النبى — ﷺ — حيث لم ينج منه إلا الأقلون ، لقد طمست الفطرة ، واختنق وهجها تحت ركام من الضلالات والكهانات التى نشرتها الجاهلية السائدة فى العالم .

وعودة بالناس إلى دين الفطرة ، يقول الله — تعالى — لنبيه — ﷺ — « إنما بعثتك لأبتليك ، وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان » .

وفى هذا إشارة إلى خلود القرآن الكريم ، وبقائه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومواجهته ، وغلبته عوامل المحو التى أضاعت بالكتب الإلهية السابقة ، حيث تطرق إليها الغش ، والمحو ، فطمست ولم يبق منها إلا سيرتها الأولى ، وماجاء به القرآن الكريم ...

أما القرآن فقد تم حفظه بعوامل غالبت الزمن ، فلم يوكل حفظه إلى

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٤٨
(٢) سورة النحل الآية : ٣٥

فئة من البشر ، أو إلى طائفة من الخلق ، بل تكفل الله — تعالى — بحفظه، حيث يسر حفظه ، فاستوعبته الصدور ، فهو يقرأ في كل زمان ومكان ، لا يمحوه من القلوب شيء : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[٢] .

وفي ذلك دلالة واضحة على استمرارية حفظه من جيل إلى جيل واتصال ذلك بالنبي — ﷺ — الذي تلقاه عن ربه — جل وعلا — بواسطة جبريل — عليه السلام ، بهذه العملية يكون التالي لكتاب الله — تعالى — والحافظ له ، آخذا عن الله — عز وجل — لاتصاله بالسند ، وهذا عمل لم يتوفر لأي كتاب إلهي سابق ، ودليل قائم على استمرارية هذه الرسالة ، وبقائها على مر الدهور والأزمان في شتى بقاع المعمورة . . .

رابعاً : لاغرابة إن رأيت أن المواجهة لصاحب هذه الرسالة ، ومن آمن به شديدة قوية ، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، كما أن العصمة لا تمنع المحنة .

لقد أنكر من سمع بهذه العقيدة — عقيدة التوحيد — فرأينا معاداة صاحبها حينما أمر بالإفصاح عنها ، والتحدث بها ، وعملوا على إطفاء نورها ، وهذا ما أظهره قول الله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين »[٣] ، « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة القمر الآية : ١٧

(٣) سورة القلم الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٤) سورة التوبة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ .

ولنسمع إلى هذا الحوار الوارد في الحديث الذي بين أيدينا ، حيث يقول — ﷺ — « وإن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة — أي يكسروه كالخبزة ، وهو الرغيف المهشوم — ، قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك — أي نقويك ونعنك عليهم وننصرك — وانفق فسننفق عليك ، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . وهذا أمر بمواجهة الأعداء ، وإسماعهم ما يكرهونه ، هذه المواجهة لا تعني حد السيف ، وتحريق البيوت وقتالهم ، حيث لم يؤمر بقتال بعد ، بل تعني البلاغ عن الله بأمر الدعوة ، والعمل على نشرها ...

خامساً : يمضي بنا الحديث فيصف لنا ذوي الفطرة السليمة ، التي لم يخالطها باطل ، أو غرض خسيس يخرجها عن نقائها ، فيقول — ﷺ — « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » ، وقال : « وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له — أي لا عقل له ، يعني السفهاء الرعاع — الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا — يعني أصحاب الفراغ اليدوي والنفسي ، الذين استهلكتهم البطالة ، فلا يسعون لدنيا أو دين — ، والخائن الذي لا يخفى له طمع ، وإن دق إلا خانه ، وهذه هي صفة النوع الثاني من أهل النار ، ناس لا تشغلهم أمانة ، ولا تقفهم حدود ، لا ترعهم مسؤلية ، فهم يلتهمون ما يصل إلى أيديهم من حقوق الآخرين » ، وقريب من ذلك النوع الثالث الذي يصفه الرسول — ﷺ — بقوله : « ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » .

أما الصنف الرابع : فقد تردد الراوي فيه بين البخلاء والكذبة ، وكلاهما شر من صاحبه . الخامس : الفحاش يعني الحاذق في قوله ، وفعله ، الذي لا خلق عنده ولا خلاق بذيء اللسان سيء الأفعال ...

من هذا نعلم : أن أصحاب النار قوم غلبت عليهم الآفات النفسية ، فسلبتهم كل خلق سوى يتماشى مع الفطرة السليمة ... وبدراسة الإسلام دراسة واعية ، نجد أول ما يقابلنا من الأمور البدهية التي لا يختلف فيها إثنان موافقته للفطرة الإنسانية ، ومسايرته لها ، حيث عمد إلى الركنين الأساسيين لها وهما : الفكر الحصيف ، والقلب السليم .

ذلك أن حصافة الفكر ، ونضج العقل ، ينتج عنه الإدراك الفقهي الواسع المستنبط من أقوال المعصوم — ﷺ — الذي غفل عنه كثير من الخلق ، فشوهوا الفطرة السوية من خلال ركنها الأول ، الذي يقول فيه — ﷺ — « تعلموا العلم قبل أن يرفع ، فإن أحدكم لايدرى مايفتقر إلى ما عنده ، وعليكم بالعلم ، وإياكم والتنطع والتبدع والتعمق وعليكم بالعتيق »[١] ، ويقول : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد »[٢] ويقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[٣] . فكم من أساء إلى الإسلام ، فبدل أن يهدى إليه ، صد عنه . وجر عليه المتاعب بقصور فقهه ، وقلة بصيرته ، وإن كان من المخلصين .

وكم من رجل حسن المعرفة ، واسع الخبرة في مجال الدعوة ، زكى الفهم ، لكنه ذو هوى ورغبة في فرض ذاته ، وإظهار مكانته بين الناس ، فتراه يعمل لذلك بقوة على حساب دينه ، ومصلحة جماعته ومستقبلها .

لهذا ولغيره قيض الله لهذا الدين أناسا فرغهم لخدمته ، واستعملهم له ،

---

(١) رواه الديلمي عن ابن مسعود — رضي الله عنه — (الجامع الكبير — السيوطي — جـ٣ ص٦١٢)

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة عن ابن عباس

(٣) رواه الإمام أحمد ، والترمذي عن ابن عباس ، وابن ماجة عن أبي هريرة

وأغناهم عن الناس ، وأعطاهم القوة فى الفهم والحفظ ، فكانوا أداة حفظ صحيحة لهذا الدين القويم . فلم يبيعوا دنياهم بدينهم ولا بدنيا غيرهم ، ولم يتكسبوا بالعلم ، ولم يجروا وراء الدرهم والدينار ، حفظوا جيداً قول الرسول — ﷺ — أنزل الله فى بعض الكتب (أو أوحى إلى بعض الأنبياء) :

« قل للذين يتفقهون لغير الدين ، ويتعلمون لغير العمل ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس مسوك الكباش ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، وألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، إياى يخادعون ؟ وبى يستهزئون ! لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانا »[1] .

هلاك المرء إعجابه بنفسه :

يقول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : « أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها، لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه »[2] .

ويقول أيضاً : « الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها »[3] .

---

(١) رواه ابن عبد البر فى كتابه « بيان العلم وفضله » ص ٢٢٩

(٢) أنظر شرح ذلك فى الجانب العاطفى من الإسلام — الشيخ محمد الغزالى — ص ١٣٨ ، الحكم ب ٣ ص ٦٩ زروق

(٣) المصدر السابق ص ١٦١ ، الحكم ب ١٥ ص ١٣٩

ويقول ابن الجوزى فى ذلك : « المصيبة العظمى رضى الإنسان عن نفسه ، وإقتناعه بعلمه ، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق ... فترى كل ذى هوى يثبت عليه، إما لأنه مذهب أبيه وأهله ، أو لأنه نظر نظرا أول فرآه صوابا ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه ، ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين — على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم .

ولما لقيهم عبد الله بن عباس — رضى عنهما — فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان ومن لم يرجع عن دواء ابن ملجم ، فرأى مذهبه هو الحق ، فاستحل قتل أمير المؤمنين — رضى الله عنه — ورآه دينا ، حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ،فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال: كيف أبقى ساعة فى الدنيا لا أذكر الله ... »

ومثل هذا ماله دواء(١) . لقد انحرف بذلك عن مسلك الفطرة ، التى جبل عليها وابتدع لنفسه ولمن أتبعه دينا أعتقده، وولاية إدعاها،وعلما ناقصا أفتى به ... لقد تحجر فى مكانه ، وأغلق الباب على نفسه ، وادعى الكمال لها ، ... ، فاستخف بغيره وانتقصه ، ولم يسمع منه ، مثل هذا ماله دواء، إنه شر خلق الله على الأرض ، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »(٢) .

---

(١) صيد الخاطر — ابن الجوزى — ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

(٢) سورة الأنفال الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

نبوة كاذبة ، وولاية مردودة ، وعلم مضل :

إن الحق لا يشتبه بباطل ... لكن قد يموه بالباطل عند من لا فهم له.

وهذا ظاهر فى حق من يدعى النبوات ، وفى حق من يدعى الكرامات ، وفى حق من يدعى العلم والمعرفة .

فالحق وإن كان واضحا ومعلوما ، لكنه لا يعرف إلا من ضده : وقديما قيل : بالأضداد تتمايز الأشياء ... ولا يفطن ذلك إلا كل لبيب صبور ، يطلب الحق ويترصد له من العدو قبل الصديق ، ومن الصغير قبل الكبير ، فالحكمة ضالة المؤمن إن وجدها فهو أحق بها .

والأحداث خير شاهد على ما نقول .

لقد شهد القرن الأول من الدعوة الإسلامية أمثال هذه الادعاءات ، خاصة بعد وفاة النبى — ﷺ — فقد بدت الفرصة ممكنة . . . سواء لمن دخلوا فى الإسلام وهم يبطنون غير ما يظهرون ، أو لم يدخلوا فى الإسلام — أصلا — وتمنوا أن يقاوموه — لكنهم وجدوا أن المقاومة المسلحة — وحدها — لا تكفى لمنع هذا الدين من الإنتشار . . . فكان منهم أن أدعى بعضهم النبوة ، من هؤلاء (مسيلمة الكذاب) فى بنى حنيفة باليمامة .. و(الأسود العنسى) فى اليمن ... و(طليحة بن خويلد) فى قبيلة أسد ... ، وقد ظهرت فى بنى تغلب امرأة أدعت النبوة تدعى (سجاح بنت الحارث بن سويد) . .

الكذاب لا يفضحه إلا كذاب مثله :

لقد ادعت (سجاح التميمية) النبوة بعد وفاة رسول الله — ﷺ — واجتمع عليها بنو تميم لنصرتها ، وكان فيما أدعت أنه نزل عليها :

«أيها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يبغون»، وكان ممن اجتمع إليها الأحنف بن قيس ،وحارثة ابن بدر، ووجوه بنى تميم ، وكان مؤذنها شبيب بن ربعى الرياحى ، فصمدت فى جيشها إلى مسيلمة الكذاب وهو باليمامة ، فقالت : يامعشر بنى تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ،واضربوا فيها نارا ملهامة، حتى تتركوها سوداء كالحمامة » . وبلغ مسيلمة خروجها ، فضاق به ذرعا ، وتحصن فى حجر (حصن باليمامة) ، وأرسل إلى وجوه قومه يسألهم ماذا يفعل ؟ فأجابوه بأن يسلم هذا الأمر إليها .

وكان مسيلمة داهية يعرف حالها ، فأرسل إليها قائلا :«إن الله تبارك وتعالى أنزل عليك وحيا ، وأنزل على وحيا ، فهلمى نجتمع فنتدارس ما نزل علينا ، فمن عرف الحق يتبعه، واجتمعنا فأكلنا العرب أكلا بقومى وقومك .

فبعثت إليه افعل ، فأمر بقبة أدم فضربت ، وأمر بعود فبخر فيها ، وقال أكثروا من الطيب فإن المـــرأة إذا شمت الطيب ذكرت الباه ، ففعلوا ذلك .

وحلت اللحظة الحاسمة، واجتمع الكذابان... ودارت بينهما المناقشات وطال الحديث بين الاثنين... وإذ بها — فى النهاية — وقد ظهر كل منهما على حقيقته ... فرأى «مسيلمة» «سجاح» بعين الرجل ،ورأت «سجاح» «مسيلمة» بعين المرأة ، وقبلت الزواج منه كما لم يتوقع أحد !! فافتضحت عند العقلاء من أصحابها فقال منهم عطاء بن حاجب :

أضحت نبيتنا أنثى يطاف بها
وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

فلعنة الله رب الناس كلهم
على سجاح ومن بالا لك أغوانا

أعنى مسيلمة الكذاب لا سقيت
أصداؤه من رعيت حيثما كانا[١]

عند هذا الحد وضعت «سجاح» نهاية لأكاذيبها... أما «مسيلمة» فكان له شأن آخر، فقد أعد أبو بكر — رضى الله عنه — وكان خليفة المسلمين الجيوش لمحاربة المرتدين عن الدين، ومنهم هـؤلاء الذين يتبعون أدعياء النبوة.

وقاد خالد بن الوليد الجيش الذى التقى بمسيلمة وجنوده... فى معركة اليمامة، وفيها قتل مسيلمة، ومن قبله مالك بن نويرة، ولم يبق على قيد الحياة غير «سجاح» التى أسلمت أخيراً، وبالرغم من موت «سجاح التيمية» وغيرها من مدعى النبوة، فإن مسيلمة مازال موجودا. وويل للمسلمين من فتواه ودهائه وحيله... فمن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله — ﷺ — يقول: «إن بين يدى الساعة كذابين، وزاد فى حديث أبى الأحوص قال: فقلت له أنت سمعت هذا من رسول الله — ﷺ — قال نعم»[٢]، وعن أبى هريرة عن النبى — ﷺ — قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»[٣].

---

(١) انظر الأغانى — الأصفهانى — جـ١٨ ص١٦٥، ١٦٧، مختار الأغانى ابن منظور جـ٤ ص ٢٩٧، ٢٩٨

(٢) صحيح مسلم جـ٨ ص ١٨٩ ك/ الفتن، ب/ لا تقوم الساعه حتى يمر الرجل بقبر الرجل

(٣) المصدر السابق — نفس الصفحة —

التدين المغشوش :

الحكمة من العبادات التى فرضها الله — تعالى — على الناس، أنها تزكى سرائرهم ، وتقيم العلل الباطنة والظاهرة ، وتعصم السلوك الانسانى من العوج والانحراف ، وهذا لا يتحقق إلا إذا تجاوز العابدون الصورة الظاهرة للعبادة إلى صورتها الحقيقية ، فسجدت ضمائرهم وخواطرهم عند ما سجدت جوارحهم ، وتحركت أنفس ما فى كيانهم — القلب واللب — عندما تحركت ألسنتهم .

أما إذا وقف الانسان فى عبادته عند القشور الظاهرة ، والسطوح المزورة ، فإنه لا يزداد إلا كدا ، ولا يجنى إلا ألما ويكون بذلك مخالفا لحقيقة الفطرة التى جبل عليها وخاطبه الإسلام وكلفه من خلالها ، وفى مثل هذا الصنف يقول الله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »(١) ويقول سبحانه: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »(٢) ، إنهم بذلك الاتجاه أعداء نبوة ورسالة ، وتلك طبائع بعض الناس التى تحول الدين من وجهته الحقة ، إلى وجهتها هى... لقد نبه القرآن الكريم إلى خطورة هذا الاتجاه فى صورة الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، فجعلوا الدين كهانة تفسد الفطرة ، وتصطاد بها المنفعة ، فقال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله»(٣) .

---

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٣، ١٠٤

(٢) سورة الحج الآية ١١

(٣) سورة التوبة من الآية ٣٤

ذلك أن الانحراف العقائدى، والعوج الفقهى، ما هو إلا ثمرة من ثمرات التدين المغشوش، الذى أشار إليه المولى — سبحانه — بقوله: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون»[1]، وقوله: «ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا»[2]، فالدين وحدة واحدة — عقيدة، وشريعة، ومنهاج حياة بين الفرد والجماعة — لا يعرف التجزؤ والتفرق. قال تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة»[3].

وقال سبحانه: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[4].

إن هذا التفرق والانحراف الناشىء بين الأفراد والجماعات، إنما جاء نتيجة قصور فى الادراك العقلى، وعدم إلمام بالخلاف الفقهى الذى لا يوهى بين المؤمنين أخوة، ولا يحدث وقيعة، والخلاف إذا نشب إنما يكون لأسباب وجيهة، وإبداع عقلى مضبوط بالكتاب والسنة، لكن هؤلاء تكمن وراء خلافاتهم علل تستحق الكشف...

ذلك أنهم قوم يتمنون وقوع الخطأ من الناس، حتى إذا زلت أقدامهم وثبوا على المخطىء، وظاهر أمرهم الغضب لحدود الله — تعالى — أما باطنهم فالتنفيس عن رغبات الوحش المفترس الكامن فى دمائهم، يريد أن ينهش المارة، ويمزق أديمهم....

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٩

(٢) سورة الروم من الآيتين ٣٢،٣١

(٣) سورة البينة الآية ٦

(٤) سورة الشورى من الآية ١٣

علامة هؤلاء أنهم يضخمون التوافه ، ويتاجرون بالخلافات ، ويتلمسون للأبرياء العيوب !! إن التدين يوم يفقد طيبة القلب ، ودماثة الأخلاق ، ومحبة الخلائق ، يكون لعنة على البلاد والعباد ومرضا ليس له دواء .

العلاج :

إن مخالفة الإنسان للفطرة ظاهرة موجودة منذ القدم ... بحكم التكوين الأساسي الذي جبلت عليه كينونته ... وبحكم تنشئته واختلاطه بغيره ، ذلك أنه ربما لا تتساوى درجة امتزاج عناصر المادة — أو نسبتها — في كل منا ، فيكون لذلك أثره الواضح في مستوى العواطف والميول ... وأحكام العقل ... الذي يحاول أن يرتفع بالإنسان إلى الدرجة الأعلى ، والمرتبة الأرفع ... بينما تحاول المادة أن تنحدر به إلى المستوى الأدنى وفي ظل هذه المعركة يكون الإبتداع والإنحراف عن جادة الفطرة السوية .

والدين الإسلامي دين أشبه بالإلهامات الفطرية من البواعث الخارجية ، وهو نصوص عامة معصومة من الهوى والإنحراف ، حددت للمسلمين مناهج استنبطوها بعد إطالة الفكر والنظر ، وساروا على هديها في بحوثهم كل بحسب ما قدر له من التوفيق ...

شملت هذه المناهج طبيعة الإنسان النفسية ، وطبيعته الحيوانية ، وطبيعته الإنسانية التي نشأت نتيجة اختلاطه بغيره . .

ففي الجانب النفسي ترى القرآن الكريم يذكرنا بالنفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس الملهمة ، والنفس المطمئنة ، فيقول سبحانه :

« إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى »(١)، ويقول: «ولا أقسم بالنفس اللوامة »(٢) ويقول : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها »(٣) ؛ ويقول: « يا أيتها النفس المطمئنة »(٤)، وفى القرآن الكريم توجيه للعقل وخطاب للقلب والروح ، يسمو بهما إلى أساس الفطرة السوية ، والكمال المنشود .

وطريقة القرآن الكريم فى النظر العقلى قائمة على الوضوح، واجتناب الشطط ، ويكفينا فى التدليل على ذلك:

١ — أن القرآن الكريم استخدم طريقة المقايسة الصحيحة، ليحاجج بها من قام بتحريم ما أحل الله — تعالى — تاركاً للعقل النظر ليرجع بذلك إلى الحق، فيقول سبحانه: «ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤنى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين »(٥).

لقد رد الله — عز وجل — عليهم زعمهم بهذا الإستفهام الإنكاري من خلال الفروض والإحتمالات الواردة والمناسبة لما يقولون ،

---

(١) سورة يوسف الآية : ٥٣
(٢) سورة القيامة الآية : ٢
(٣) سورة الشمس الآيتان : ٧، ٨
(٤) سورة الفجر الآية : ٢٧
(٥) سورة الأنعام الآيات : ١٤٢ — ١٤٤

وانتهى إلى هذا الحكم العام بأنهم أظلم الناس ، وذلك أن اللفظ عام والعلة الموجبة لهذا الحكم عامة(١) .

وبهذا تبين انتقاض عللهم وفساد قولهم ، ولما لزمتهم الحجة أخذوا فى الافتراء بما لم يقم عليه دليل(٢) .

٢ — أن القرآن الكريم قد عمد فى بيانه إلى أقوال المعاند ، وألزمه بما يقول ، وذلك كما جاء فى قول الله تعالى عن المنافقين الذين قالوا : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »(٣) .

لقد بين القرآن الكريم مازعمه أعداء الإسلام وتوهموه ، حيث قالوا إن العزة بكثرة الأموال والأتباع ، فبين الله — تعالى — أن العزة والمنفعة والقوة لله ، فالأعز هو من أعزه الله بإيمانه ، والأذل من أذله الله وأهدر كرامته بكفره ...

٣ — الاستدلال بطريق التسليم جدلا للوصول بالمعاند إلى النتيجة المترتبة على دعواه ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »(٤) .

لقد سلم الله — تعالى — لهم جدلا ، ثم جاء بالنتيجة المترتبة على ذلك ، فقال سبحانه . « إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

---

(١) مفاتيح الغيب — الرازى — جـ ٩٠ ص ٩٠٩

(٢) الجامع لاحكام القرآن — القرطبى — جـ ٢ ص ٢٦٣٥

(٣) سورة المنافقون من الآية : ٨

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٩١

٤ — الاستدلال بطريق الإنتقال إلى الحجة التي يسلم بها المعاند وإفحامه من خلالها فيقول الله — تعالى — في محاجة إبراهيم — عليه السلام — « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين »(١) .

٥ — الإستدلال بطريق المناقضة، ويراد : التعليق على المحال ليكون ما علق عليه محالا أيضاً ، وفي ذلك يقول الله تعالى : «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين »(٢) .

أما فيما يتعلق بخطاب القرآن الكريم للقلب والروح وطريقته . فقد جاء نتيجة لقصور العقل وتتمة له في طريق الفهم واستيعاب القضايا ، فمهما بلغ العقل من شأن فإنه لابد وأن يساند بقلب يرى بنور الله — تعالى — وحس خاص يتخطى به صاحبه عقبات الطريق .

ومتى بلغت النفس الإنسانية كمالها الخاص، وسلكت في ذلك سبيلها إلى الله — تعالى — أضحت عالما عقلياً ، موازيا للعالم الموجود كله : لا ترى إلا الحس المطلق ، والجمال المطلق والخير المطلق ، ولا عجب إن كانت الرؤيا وحياً إيمانياً بالرائي، ففي الحديث : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »(٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٨

(٢) سورة الاعراف الآية : ٤٠

(٣) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — (الجامع الصغير — السيوطي ص ١٦٥) .

أما طبيعة الإنسان الحيوانية : فقد حدد الإسلام لها المنهج الصحيح ، يقول تعالى مظهراً طبيعته : «قـــل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »(١) ، ويقول سبحانه : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين »(٢) لقد أرجع هذا المنهج كل شيء فى هذه الحياة إلى الله — عز وجل — فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، حتى لا يستبد الإنسان بذلك ويفترى على الله ، يقول تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولانعامكم »(٣) .

لقد أوجب الإسلام الإلتزام بما ينفع ولا يضر ، وهذا واضح من خلال قوله : « ولا تعتدوا » فإذا علم الإنسان أن غذاء طبيعته الحيوانية وكل ما تحتاج إليه مرسومة خطوطه وفق نظام إلهى أساسه العدل لايظلم ولا يظلم ... أدرك أن أى خروج عن هذا المنهج ليس فى صالحه ، بل هو تدمير له .

أما فيما يتعلق بطبيعته الإنسانية، الممثلة فى تعايشه مع غيره من أفراد جنسه ، ولو كانوا لايدينون بدينه ، فالإســـلام لا ينكر ذلك مؤكداً ضرورة الجماعة، ترجم ذلك فى سلوك على النبى — ﷺ — حينما أراد أن يدخل مكة بعد رجوعه من الطائف ... أرسل إلى الأخنس بن شريق : أدخل فى جوارك ؟ فقال : إنى حليف ، والحليف لايجير ، فبعث إلى

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٣٢ (٢) سورة المائدة الآية : ٨٧ .
(٣) سورة عبس الآيات : ٢٤ — ٣٢

سهيل بن عمرو فقال: إن بنى عامر لاتجير على بنى كعب، فبعث إلى المطعم ابن عدى فأجابه على ذلك»[١]، «فدخل رسـول الله — ﷺ — ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته: يامعشر قريش، إنى قد أجرت محمدا، فلا يهجه منكم أحد فانتهى رسول الله — ﷺ — إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته»[٢].

إن المطعم بن عدى رجل كافر لايختلف فى ذلك إثنان، ومـع هذا استعان به النبى — ﷺ — وأجاره، وانتقل فى مكة تحت حماية السيوف الكافرة ... هذا الموقف الذى أظهره المطعم بن عـدى، لم يتركه النبى — ﷺ — سدى، لكنه احتفظ به إلى حينه، ففى غزوة بدر، وقد أسر من قريش سبعين من صناديدهم، نراه يقول: «لو كان المطعم بن عدى حيا لوهبت له هؤلاء ...»[٣].

كما نرى أن الإسلام نهى عن السفور من القول الفاحش المسىء للجماعة المسلمة، فيقول سبحانه: «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون»[٤]، ويقول: «والذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»[٥].

وتأكيداً لكل هذه القيم النبيلة نرى أن الله ـ عز وجل ـ جعل حق

(١) المنهج الحركى للسيرة النبوية — منير الغضبان — جـ١ ص١٣٧
(٢) مختصر السيرة لابن عبد الوهاب ص ١٢٥
(٣) المنهج الحركى للسيرة النبوية ـ الغضبان ـ جـ١ ص ١٣٩
(٤) سورة النور الآية : ١٩
(٥) سورة النور الآيتان : ٢٣، ٢٤

الجماعة المؤمنة حقا له ، وأسند ذلك لنفسه ، فقال سبحانه . « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا ، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا »[١] .

حينئذ يتعين على الفرد أن يراعى مشاعر غيره من الجماعة ، وأن يعلم أن له دورا مهما يجب عليه أن يؤديه ، ملتزما بتعاليم دينه ، مظهراً عطاءه للجميع غير منكر لهم حيث قال سبحانه : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنــه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »[٢] .

ومن ثم تبين لنا أن الإسلام أدرك طبيعة التكوين الإنسانى ، وكينونته ، فاهتم بجميع جوانبه فى الحياة ، فشرع له المنهاج كاملا معتدلا متوازنا ، موافقا طبيعة تكوينه فى كل زمان ومكان .

الدعوة فقه وقول بالحق :

من لم يتفقد آفات الأعمال ، كان جل سعيه ضائعا ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، فيدرك حسن بيان التنزيل ، فيقدم الأهم على المهم مراعيا حال المجتمع ـ الأمة ـ فرداً وجماعة .

بيان ذلك :

روى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : « فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، فيهون عليهم السفر بلا سبب ، ويبسط لهم فى الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه »[٣] .

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان : ٥٧ ، ٥٨

(٢) سورة التوبة الآية : ٦

(٣) إحياء علوم الدين — الغزالى — حـ ٢ ص ٢٩٧ .

وروى عن أبى نصر التمار: أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث، وقال: قد عزمت على الحج فتأمرنى بشىء؟ قال له: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفى درهم، قال بشر: أى شىء تريد ... تزهدا، أو اشتياقا إلى البيت، أو ابتغاء مرضات الله! قال: مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله يقينا وأنت فى بيتك أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: أذهب فأعطها عشرة أنفس، مديون يقضى دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغنى عياله، ومربى يتيم يفرحه، وإن قوى قلبك تعطها واحدا، فأفعل، فإن إدخالك السرور على قلب مسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام. فقال الرجل: يا أبا نصر سفرى أقوى فى قلبى، فتبسم بشر، وقال: المـــال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس أن تقضى به وطرا، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين»[١].

إن الفتوى لا تستقيم إلا بفهم الواقع، ثم فهم الواجب[٢]، والفقيه الذى يعتد بفقهه يتعين عليه أن لا يغفل مصالح الناس، وما يتناسب مع أحوالهم فى فتواه، ومن ثم قال علماؤنا: والفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا.

فمن لا علم عنده ولا فقه يتعين عليه وجوبا ترك الفتوى، وإلا يكون مبتدعا مختلقا فى الدين، مضلا للآخرين بفتواه.

والمطلوب من القائم بأمر الدعوة — حينئذ — أن يقف على علاقات الناس بعضهم ببعض فى المكان الذى يزاولون فيه مهنتهم، فإن الحكمة وضع الشىء فى موضعه، وخطاب الناس بما يتناسب ومستواهم.

---

(١) المصدر السابق — نفس الصفحة — .

(٢) اعلام الموقعين — ابن القيم — جـ ١ ص ١٠١

لقد زودنا علم النفس الاجتماعي بمعرفة تلك العلاقات من حيث التأثير والتأثر وبالتالي لابد من بحث :

١ — طبيعة المجتمعات ونوعها .

٢ — الاشتراك الكلي أو الجزئي .

٣ — كيفية ارتباط الأفراد من حيث الوقت والاهتمام .

٤ — صفة الجماعة أولية تعيش معا كالأسرة ، أم ثانوية كالحزب أو غيره .

٥ — درجة التأثر بمعتقدات الجماعة .

٦ — علاقات الأفراد تعاونية تستجيب لشيء مشترك أم تفاعلية يستجيب بعضها لبعض .

٧ — دوامها ومدة بقائها .

طبق هذا المفهوم الذي نعنيه الإمام الشافعي — رضي الله عنه — ، فحينما كان في العراق أنشأ مذهبا فقهيا ، فلما أتى مصر أنشأ مذهبا آخر ، وأصبحنا نسمع عن رأيه في المسألة قديما وحديثا : أي حين كان في العراق ، ولما أصبح في مصر ، فالإمام واحد ، والفتيا اختلفت باختلاف الزمان والمكان والأشخاص .

إن فهم قضية الدعوة بهذه الدقة المطلوبة يعطي لها مرونة في الحركة ، فلا يجمد الداعي على تصور الحركة نفسها ، بل يتخطاها ويدرك ماوراءها لقد جالس النبي — ﷺ — المشركين قبل الرسالة في دار ابن جدعان ، ووافقهم فيما ذهبوا اليه في هذا العهد ، نصرة المظلوم ،

---

(١) الدعوة قواعد وأصول — جمعة أمين عبد العزيز — ص ١٠١

وكى يقطع على من يقول : إن هذا كان قبل الإسلام ، نراه يقول — صلى الله عليه وسلم — : « دعيت فى دار ابن جدعان لحلف لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت » . بهذا الفهم السليم قطع الطريق على كل متعنت ينظر للنصوص نظرة سطحية غير واعية .

لذلك كان فقه الدعوة علماً من العلوم التى يجب على الداعى دراستها ، والاهتمام بها ، ومن المؤسف المحزن أن نسمع بعض الناس يجعلون هذا العلم من البدع ، وليتهم استحسنوا هذه البدعة لأنها تيسر للداعى أمره فى الدعوة ... ورداً عليهم أقول : ما تقولون فى علم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وعلم الجرح والتعديل . إلخ .

أليس الإمام الشافعى — رضى الله عنه — أول من دون علم أصول الفقه، لقد وضع كتابه «الرسالة» التى أصبحت مرجعاً أساسياً لكل دارس فهل يعد تعلم هذه بدعة ؟؟

إن الذين يعيشون أمر الدعوة ، ويحيون لها وبها ، يعلمون يقيناً أن الإسلام ليس أمراً تعبدياً يتمثل فى الصلاة والزكاة والصيام . إلخ بل يشمل هذا ويزيد ، إنه يعنى العلاقات التى تحكم الأفراد ، بل والجماعات، والدارس لحياة الرسول — ﷺ — يعلم كيف كان يدعوا إلى هذا الدين الخاتم ، وكيف كان يأخذ بأيدى الأفراد إلى معالى السلوك ، إنه لم يسلك هذا من فراغ ، بل من فقه يعلم من خلاله بأحوال المدعوين .

وفى ذلك يقول الله تعالى مظهراً سلوكه فى الدعوة : «قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين»(١). إنه سلوك قائم على قواعد وتوجيهات موزونة بميزان الفقه وأصوله، ذلك أن

---

(١) سورة يوسف الآية : ١٠٨

شريعة الإسلام الخاتمة متجددة على مدى الزمان والأيام ، فلقد أتت بقواعد تشريعية مستنبطة من استقراء النصوص، وأسباب التنزيل، ووقائع الأحداث. فعلى القائم بأمر الدعوة أن يراعي في دعوته هذه القواعد مستعيناً بها في دعوته إلى الله — تعالى — كي يكون على بصيرة من أمر دعوته ، وهاهي أهم تلك القواعد :

١ — الأصل في الأشياء الإباحة ، والتحريم استثناء .

٢ — الاستثناء لا يتوسع فيه ، ولا يقاس عليه .

٣ — الضرورات تبيح المحظورات .

٤ — اليقين لا يزول بالشك .

٥ — ماخير — صلى الله عليه وسلم — بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً .

٦ — لا ضرر ولا ضرار .

٧ — إذا وجدت مفسدتان روعي أشدهما ضرراً بارتكاب أخفهما .

٨ — درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

٩ — حسن الظن من حسن العبادة .

كما يعلم أيضاً : أن الشريعة كلها إما فرض: يعصى من تركه، وإما حرام: يعصى من فعله، وإما مباح : لا يعصى من فعله ، ولا من تركه، وهذا المباح ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إما مندوب إليه يؤجر من فعله ، ولا يعصى من تركه ، وإما مكروه يؤجر من تركه ، ولا يعصى من فعله ، وإما مطلق : لا يؤجر من فعله ولا من تركه ، ولا يعصى من فعله ولا من تركه »[1] .

(١) الورقات في أصول الفقه — الجويني ص ٣

كما يتعين على الداعي أن يوجه فكره إلى :

١ — دراسة مشاكل المجتمع .

٢ — وضع الحلول المناسبة لها من نصوص الإسلام بوعي ودراية .

٣ — التحذير من خطورة بقائها .

كما يجب على الداعي أن يكون على حذر من الموانع التي قد تعرض العقل ، وتمنعه من التوصل للحق وذلك :

١ — كعبادة السلف . وتقديس أقوالهم من غير معرفة ظروفها ، والتأمل فيها .

٢ — الاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »(١) .

٣ — الخوف المهيمن من أصحاب السلطة الدنيوية : « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »(٢) .

والحاكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه ، ولا يستهويه من باطنه ، كما يستهويه حب السلف ، أو القدوة الخادعة ، والاستبداد مشكلة مكانية ، والقدوة الخادعة مشكلة عقل وضمير(٣) .

وليعلم كذلك أن كتب السيرة والتراجم قد حوت على كثير من الأخبار قلما تصح ، فعليه أن لا يفتتن بما فيها ، وعليه أن يتحرى ذلك بالطريقة العلمية السليمة التي تتلخص فيما يلي :

١ — التجريد والتجرد : ونعني بذلك أن ينظر الداعي إلى الواقعة

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٣١

(٢) سورة الأحزاب الآيتان : ٦٦، ٦٧

(٣) انظر التفكير فريضة إسلامية — العقاد ص ١٨

مجردة عن غيرها ، حتى لا تختلط عليه الأمور ، ويترتب على هذا أن لا يكون له حكم سابق على الواقعة فيستخدمه .

٢ — الملاحظة والتجربة : ومعنى ذلك أن يلاحظ الداعى جميع ما تحتوى عليه الواقعة من موافقات أو تناقضات . ومعنى التجربة : أن يلاحظ ما فى الكتاب المقروء من وقائع هل صدق فيها صاحبها ، أم كذب ، فيتوقف فى قوله حتى يتبين له صدقها من كذبها .

٣ — الموازنة والاستنباط : ومعنى ذلك أن يقوم الداعى بموازنة بين الأخبار المتضاربة ، ثم يقوم بعد ذلك باستخراج ما يراه صواباً بتوفيق الله — تعالى — .

لكن ما يلاحظ على الدعاة ، أنهم يتهاونون فى أمر دعوتهم فيأتون بما يوافق طبائع الناس ، ويثير عواطفهم طلباً لرضاهم ، وسعيا وراء أهوائهم ، وهذا لا يفيد الدعوة ، ولا يخدم الإسلام الذى هو دين الحق الذى لا يقبل إلا ما هو حق وصواب .

كما لا بد للداعى من التخطيط الذى هو التدبير ، والروية والتعقل ، والتخطيط ينافى الاتكال والارتجال ، ويهدف إلى الوصول لما يمكن أن يكون .

ولا بد له — كذلك — من الحرية ، والحرية فى الشريعة الإسلامية تتمثل فى :

١ — حرية التفكير .

٢ — حرية الاعتقاد .

٣ — حرية القول .

فحرية التفكير ترجع إلى فضيلة الإسلام الكبرى ، حيث فتح للمسلمين أبواب المعرفة ، وحثهم على ولوجها والتقدم فيها ، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم . ويكفينا دلالة على ذلك أن الإسلام جعل التفكير يغني عن جميع العظات فيقول سبحانه ، قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ،[١] .

وحرية الاعتقاد أثبتها القرآن الكريم وجاءت ممثلة في :

(أ) لا إكراه في الدين .

(ب) وجوب دفاع صاحب العقيدة عن عقيدته .

أما حرية القول : فمشروطة بعدم العدوان ، وإساءة الاستعمال .

حتى لا يدان الإسلام بسبب التفكير والاعتقاد والقول :

عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال « إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين »[٢] . وفي حديث ابن مسعود عن النبي — ﷺ — قال « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا[٢] ، وهم المتعمقون الغالون في تدينهم ، شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم .

وفي حديث سهل بن حنيف ، عنه — ﷺ — قال : « لا تشددوا على أنفسكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بتشددهم ، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات »[٣] .

---

(١) سورة سبأ من الآية : ٤٦ وانظر الفلسفة القرآنية — العقاد ص ١٣

(٢) رواه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم .

(٣) رواه أحمد ومسلم ، وأبو داود .

لقد رفض الإسلام بالكلية جميع الإنحرافات ، كما رفض التنطع فى التفكير ، والتغالى فى الدين ، والتشديد فى القول ، والدعوة إلى ذلك باسم الدين ... والدين لا يعرف مثل هذا الغلو ، وهو منه بعيد ، والحديث عندما يكون عن الغلو والإنحراف فى التفكير والاعتقاد ... فإنه لا قيمة لأى بيان أو حكم ما لم يكن مستنداً إلى المفاهيم الإسلامية الصحيحة ، وإلى النصوص والقواعد التشريعية الثابتة ، لا إلى الآراء المجردة والأقوال الضعيفة ، فلا حجة فى قول أحد دون الله ورسوله .

وانطلاقاً من هذا يمكننا إظهار سمات ودلائل هذا الغلو ، والدعوة إلى ذلك باسم الدين ، فما الغلو إذن ، وما دلائله وسماته ؟؟

١ — التعصب للرأى :

إن أول دلائل الإنحراف والغلو باسم الدين : هو التعصب للرأى تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود ، وجمود الشخص على فهمه جمودا لا يسمح له برؤية واضحة لصالح الخلق ، ولا مقاصد الشرع ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين ، وموازنة ما عنده بما عندهم ، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهانا وأرجح ميزانا .

والعجيب أن من هؤلاء من يجيز لنفسه أن يجتهد ، ولا يجيز لعلماء العصر المتخصصين منفردين أو مجتمعين أن يجتهدوا فى رأى يخالف ما ذهب إليه .

هذا التعصب يعد انحرافا حقاً ، كأنه يقول لك من حق أن أتكلم ، ومن واجبك أن تسمع ولا تتكلم ، هذا الصنف من الناس لا يمكن أن يلتق بغيره أبداً .

٢ — التزام التشديد :

من دلائل هذا الغلو - أيضا - التزام التشديد دائماً، وإلزام الآخرين به، والأخذ بالأشد فى بعض المسائل، وبالأثقل فى بعض الأحوال ... وقد تأتيه الرخصة فيرفضها، ويعمل بالعزائم، ويدع التيسير فى الدين. وهذا مناف لقول الله تعالى: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»[1] ولقول النبى — ﷺ — «إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه»[1]، وقوله: «إن الله تعالى يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه»[2].

٣ — التشديد فى غير موضعه :

ومما ينكر من التشديد أن يكون فى غير مكانه، وزمانه، كأن يكون فى غير دار المسلمين، وبلاده الأصلية، أو مع قوم حديثى العهد بالإسلام فهؤلاء يجب التساهل معهم فى المسائل الفرعيـــة، والأمور الخلافية، والتركيز على الكليات قبل الجزئيات، والأصول قبل الفروع، وتصحيح عقائدهم أولا.

٤ — العنف والخشونة :

من دلائل هذا الغلو وسماته: العنف فى التعامل. والخشونة فى الأسلوب والغلظة فى الدعوة، خلافا لهدى الله وهدى رسوله — ﷺ — ويكفينا

---

(١) سورة البقرة من الآية: ١٨٥
(١) رواه أحمد، والبيهقى عن ابن عمر.
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير، عن أبى الدرداء، وواثلة .. وأبى أمامة، وأنس.

في الدلالة على ذلك وصف الله لنبيه — ﷺ — بقوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم »(١) وقوله : فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٢) .

٥ — سوء الظن بالآخرين:

من دلائل الغلو كذلك : سوء الظن بالناس ، والنظر إليهم بإخفاء حسناتهم ، وإبراز مساويهم ، وهذا مخالف لما جاء في قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا »(٣) : وأصل هذا كله : الغـــرور بالنفس ، والازدراء للغير ، والمسلم الحق لا يغتر بعمله أبدا : ويخشى أن يكون فيه من الدخل والخلل مايحول دون قبوله وهو لا يدرى ، قال تعالى: والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون »(٤) .

ومن كلام ابن عطاء الله : « ربما فتح الله لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول ... وربما قدر عليك المعصية فكانت سببا في الوصول ، معصية أورثت ذلا وإنكسارا، خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا»(٥)

٦ — الوقوع في الحرام واستباحته :

يبلغ هذا الغلو والانحراف نهايته ، حين يسقط عصمة الآخرين ،

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨
(٢) سورة آل عمران من الآية : ٥٦
(٣) سورة الحجرات من الآية ١٢
(٤) سورة المؤمنون الآية ٦٠
(٥) الحكم ابن عطاء الله السكندرى ، ب/١٠ ص١٤٠ ، ١٤١ شرح الشيخ زروق

ويستبيح أموالهم ودماءهم ، ولا يرى لهم حرمة ولا ذمة ، وهذا يمثل قمة الإنحراف الفكرى والعقائدى الذى يجعل صاحبه فى واد ، وسائر الأمة فى واد آخر ، وهذا ما وقع فيه الخوارج فى فجر الإسلام . الذين كانوا أشد الناس تعبدا لله — عز وجل — صياما وقياما وتلاوة للقرآن . . . ولكنهم أتوا من فساد التفكير والاعتقاد ، لا من فساد صلاتهم وتلاوتهم القرآن . . . وأمثال هؤلاء موجودون ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق — ﷺ — نسأل الله تعالى لهم الهداية ، والرجوع إلى أحسن طريق ، إنه سميع مجيب ، وصلى الله على سيدنا محمد الداعى إلى الحق بالحق وعلى آله وصحبه آمين .

د/ فوزى عبد العظيم رسلان قمر

أهم مرجع البحث

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ صحيح مسلم ـ الإمام مسلم .
٣ ـ إحياء علوم الدين ـ الغزالى .
٤ ـ اعلام الموقعين ـ ابن القيم .
٥ ـ الاصل هو الاباحة ـ ابراهيم بشير الغويل
٦ ـ الاغانى ـ لابى فرج الاصفهانى
٧ ـ التفكير فريضة إسلامية ـ العقاد
٨ ـ جامع بيان العلم وفضله ـ ابن عبد البر
٩ ـ الجامع الكبير ـ الإمام السيوطى
١٠ ـ الجامع الصغير ـ الإمام السيوطى
١١ ـ الجامع لاحكام القرآن ـ القرطبي
١٢ ـ الجانب العاطفى من الإسلام ـ الشيخ الغزالى
١٣ ـ الحكم ـ لابن عطاء الله السكندرى
١٤ ـ الدعوة قواعد وأصول ـ جمعه عبد العزيز
١٥ ـ صيد الخاطر ـ ابن الجوزى
١٦ ـ الفلسفة القرآنية ـ العقاد
١٧ ـ مختار الاغانى ـ ابن منظور
١٨ ـ مختصر السيرة ـ ابن عبد الوهاب
١٩ ـ المنهج الحركى للسيرة النبوية ـ الغضبان
٢٠ ـ مفاتيح الغيب ـ الرازى
٢١ ـ الورقات فى أصول الفقه ـ الجوينى